الفصل الأول

ابن خلدون من أفق المغرب إلى أفق المشرق

د. الطائع الحداوي(*)

١- من العنوان إلى النص:

يذهب الظن إلى أن وضع عنوان الكتاب بهذه الصورة " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا "(١) يقصد منه، لا محالة، تحقيق مرامي متعددة يمكن أن نحتفظ منها:

١. إدماج المؤلف في المؤسسة الأدبية والاجتماعية لما يحمله العنوان من وظيفة تعيينية غايتها كشف هوية العمل (التعريف والرحلة) وهوية صاحبه(ابن خلدون) واندراجهما في مسار مؤسساتي تداولي.

٢. الإشارة إلى نوازع من أسلوب حمل المؤلف بما هو نقل اسم العلم ابن خلدون من مستوى المبني للنكرة إلى مستوى المبني للمعرفة أي تهيء أفق انتظار القارئ لتلقي معلومات موضوعها هذا الاسم وشكلها هذه الصيغة. فالعنوان ضرب حملي صيغي.

٣. عمل واضع العنوان كل جهده ليجعله مصاغا بكيفية تمثل عنصرين ظاهرين: عنصر تعريفي وعنصر رحلي. وكلاهما يشير، باقتصاد في اللفظ والحمل، إلى دلالة خطابية تعاطفية من شأنها أن تمارس نوعا من التحفيز الشكلي والمعرفي على نوع من القراء والمسهمين في تداول الكتاب. فالعنوان تضايفي تعبيرا تداولي جوهرا.

(*) كلية الآداب بالمحمدية ـ جامعة الحسن الثاني.

(١) اعتمدنا في هذا المبحث على نسختين:

*التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا. تأليف: عبد الرحمن بن خلدون(٧٣٢هـ ـ ٨٠٨هـ)، عارضه بأصوله وعلق حواشيه: محمد بن تاويت الطنجي. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة مصر، ١٩٥١م.

* رحلة ابن خلدون (١٣٣٢هـ ـ ١٤٠٦م)، دار السويدي النشر والتوزيع، أبو ظبي، م.ع.م والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ وهي إعادة للطبعة السابقة عليها.

وسنشير إلى النسخة الأولى ب: اللجنة وإلى النسخة الثانية ب: الرحلة

٤ . يضمر العنوان إمكان أن يكون مفتاحا تأويليا شكلا ومحتوى . فهو لا يبخل على قارئه بأن يمده بمعلومات معروضة ابتداء عن مرجعه النصي يفترض فيها أن تكون سنده الذي ينتج شبكة قنوات تواصله مع القراء في مختلف الأعصار وتباين الأمصار مهما كان اللسان عربيا .

٥ . وباستثمار النقطة ٣ـ فإن التضايف الشكلي المرتسم على العنوان يمكن إفراغه في ملفوظين كبيرين :

. التعريف بابن خلدون

. رحلة ابن خلدون غربا وشرقا

وهما ملفوظان خطابيان يحتمل كل واحد منهما الاستقلال بنفسه تركيبيا ودلاليا أي من حيث الشكل والمحتوى . فكل ملفوظ منهما يدل على كون دلالي مفتوح على صيغة كتاب . ومن ثم نحصل كتابين وليس كتابا واحدا .

وقد سمح هذا التركيب المثنوي للعنوان لأن يكون محطه تحوير وتبديل وحذف : فالمؤلف نفسه لم تكن لديه النية في أن يستقل العنوان عن ممارسة التأليف والكتابة باعتبارهما رهانا على المعطى القابل للبناء دوما . ويظهر ذلك بينا عندما اقتصر على الملفوظ الأول وحده وألحقه بتاريخه " العبر " بصيغة مؤشرية لا لبس فيها : " التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب "[٢] ، وإن كان قد استدرك الأمر وأضاف في نسخ أخرى وبخط يده " ورحلته غربا وشرقا " . ولا يعكس هذا الاستدراك تردد صاحبه والاستقرار على عنوان ثابت بقدر ما يعكس انفلات العنوان في الدلالة على محتواه وانفتاحه على نصوص أخرى قريبة منه ولا يستطيع الانفصال عنها ومنها " النص ـ الأب " (العبر) و " النص ـ الأم " (المقدمة)[٣] بما يسمه بعلاقة نصية لا يعتريها الشك .

٦ . إذا كان التعريف أو الحد " قول وجيز دال على طبيعة الشيء الموضوع "[٤] فلأنه يتجه مباشرة نحو موضوعه وبدون إطالة أو اختصار لأن غايته تكمن في التأليف بين العناصر

(٢) كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . تأليف : عبد الرحمن بن خلدون . ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس : ذ . خليل شحادة . مراجعة د سهيل ركار . دار الفكر ، بيروت ، لبنان طط ١٩٨١ ، ١٩٨٨ ، ص ٥٠٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، الدكتور عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .

(٤) أبو الفرج بن الطيب : تفسير كتاب إيساغوجي لفرفوريوس ، تحقيق الدكتور كوامي جيكي ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، طبعة ١٩٧٥ ، ص ١٣ .

الجوهرية للشيء. وقد يكون التعريف بالرسم الذي" يؤلف من خواص الشيء وأعراضه "[٥] كقولنا: ابن خلدون رحالة.

فالتعريف يفترض إثبات ما به تتقوم ذات الشيء وهو في عنواننا المشار إليه بالاسم. ورسمه أنه إنسان ألافة ورحالة في الغرب والشرق.

وبذكرنا للتعريف أو التحديد تتوارد إلى أذهاننا طرق البيانات الأخرى من: قسمة، وتحليل وبرهان، وإمكان تسخيرها في هذا النوع من الخطاب.

٧. وبما أن غاية كل دلالة إحراز وعاء لصرف حمولها، فإن العنوان يراهن على شكلين جنسيين: التعريف المرادف للترجمة، بمعناها الكلاسيكي، وللسيرة الذاتية[٦]، بمعناها الحديث، والرحلة باعتبارها نوعا أدبيا تواضع أهل الاختصاص على صورته[٧]. وعليه فالعنوان يؤلف بين نوعين أدبيين في شكل خطابي واحد. فهو عنوان من طبيعته جنسية.

٨. وتبعا لهذا، ينسج العنوان مع قرائه ميثاقا هوياتيا وأجناسيا: فقد استجاز لنفسه رفع كل لبس وريبة عن الشخص المعلن عنه صراحة: ابن خلدون، وأنه شخص حقيقي وليس شخصا متخيلا. يمتلك وضعا اعتباريا خاصا ومن مهامه الأساسية الإنتاج والتأليف. فالعنوان يحرر عهدا ميثاقيا يستميل بوساطته القارئ لكي يصدق الأقوال المنصوصة في نص الكتاب[٨].

٢- العناوين الفرعية وأشكالها الإحالية:

قبل تفصيل القول في هذه العناوين الفرعية وتواشجاتها بالعنوان الرئيس وعظم النص وسراديب أقواله نفضل الإدلاء بالملحوظات الشكلية الآتية التي لا تخلو من دلالة:

أـ كتبت العناوين جميعها بصيغة تجريدية مسندة إلى ضمير الغائب: نشأته، ومشيخته وحاله، العودة إلى المغرب الأقصى، الفيئة إلى السلطان أبي العباس بتونس والمقام بها الخ.. ووفق مركبات اسمية واصفة.

---

(٥) المرجع نفسه، ص ١٥.

(٦) allah laroui: islam et hisoire,éds.Albin Michel ١٩٩٩,p:١٠٠.

(٧) من تعاريفها مثلا أنها مبحث غير مقيد وينطلق من تجربة شخصية، وطريقة للنظر إلى العالم ورسمه كما يأتي للإدراك، وذلك في ارتباط مع اللحظة وميزتها ومناف لتمثيل المجموع. انظر:
VOYAGEURS ARABES ;PAULE CHARLE-DOMINIQUE;EDS; GALLIMARD;p: XYII

(٨) للمزيد من الاطلاع يستحسن الرجوع إلى:
ـGERARD GENETTE. SEUILS. EDS. DU SEUIL PARIS, 1987
- PHILIPPE LEJEUNE : LE PACTE AUTOBIGRAPHIQUE /EDS. DU SEUIL,1975.

ب- تتبع في رسمها خطا كرونولوجيا يتداخل أفقيا وعموديا على مستوى الظواهر الحدثية والتحقيب الزماني.

ج- أنواع الرحلات المعنية باسمها ثلاثة: الرحلة إلى المغرب، والرحلة إلى الأندلس والرحلة إلى المشرق.

د- كل الأعلام المنصوص عليها هي أسماء سلاطين تعرض باعتبارها هدفا لشيء ما: ولاية، كتابة، فيئة، مشايعة الخ....

هـ- نوع الوظائف المعلن عنها يرتبط بوظائف سياسية ودينية مع سيادة الأولى على الثانية.

و- هناك إشارة إلى نكبة واحدة وقعت في عهد السلطان أبي عنان.

فالعناوين الفرعية ذخيرة موسوعية لانطلاق النص نحو آفاق التأليف، من جهة، وأداة إجرائية لتحيين مضمرات العنوان الأساس، من جهة أخرى. كما أنها تحيل بضمير الغيبة إلى سياقات ضمير المتكلم أو ضمير الجمع في تلفظ النص. ومن جهة التوزيع والاستبدال يعين كل مركب اسمي منها موضوعته المباشرة في هذا القول التلفظي التي تتضامن وتتعاون جميعها للوصول إلى حالة الاستيفاء المعلوماتي ضمن ترتيب منطقي يرتضيه الجبر الاقناعي لبلاغة الخطاب وتشكل رسالته الفنية والتواصلية.

وإذا كان العنوان الأساس عنوانا شكليا من طبيعة أجناسية ويعود إلى كيفية القول، كما بينا، فإن العناوين الفرعية(نسبه، سلفه، بالأندلس، سلفه بإفريقية، الخ..) عناوين موضوعاتية **THEMATIQUE** تشير إلى معنى القول وإلى ما يتحدث عنه وليس إلى صورة القول.

وعند اشتغالها وانتقالها من الممكن إلى المتحقق تبدأ بمنحنا المعلومات الأولية عن شخصية المؤلف، في شكل بطاقة تعريفية يقع الاستناد فيها إلى حجج نصية وتمحيصات حدثية وكدها إضفاء الشرعية اللازمة على المحتويات وتصديق القول: فنعلم بنسبه الذي يعود بأصله الإثني إلى وائل بن حجر من أقيال العرب بحضر موت باليمن والذي يمثل له بعشر عجرات من السلسلة(هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد ابن جابر بن محمد بن إبراهيم بن خلدون) على اعتبار أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء[٩]. وأن جد المؤلف خلدون بن عثمان نزل بقرمونة ثم اشبيلية عند دخوله إلى

(٩) المقدمة، ص ٤٩٥، مرجع مذكور.

الأندلس، التي أصبح فيها لبيت بني خلدون مكانته الاجتماعية و السياسية والعلمية المعتبرة إلى جوار البيوتات الكبيرة والشهيرة على هذا العهد كبيت بني أبي عبيدة وبيت بني حجاج. ولظروف سياسية(الجلاء) سنتقل سلفه من هذا البيت بإشبيلية إلى تونس (أفريقية) التي سيرى فيها النور مؤلفنا سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة من الهجرة ليتلقى تعليمه الأول وتربيته الأولى في حجر والده إلى أن أضحى يافعا.

ففي حياة بيت بني خلدون هجرتان: واحدة من اليمن إلى الأندلس أي من المشرق إلى المغرب، والثانية من الأندلس إلى أفريقية وهي رحلة شبه داخلية بين العدوتين.

ولا يوافينا السارد في النص بالمعطيات الكافية عن الهجرة الأولى اللهم إشارته الظنية إلى احتمال دخول جده خلدون أول الفتح،[١٠] و التحديد الحدثي للهجرة الثانية التي كان سببها " غلب ملك الجلا لقة ابن أدفونش "[١١] على اشبيلية.

وشرعية بيت مؤلفنا بني خلدون يستمدها من جذره الأصلي المنوه به أعلاه: فقد روي عن النبي (ﷺ) أنه كتب لوائل بن حجر ولقومه: من محمد رسول الله إلى الأقوال العباهلة وفي رواية إلى الأقيال العباهلة[١٢]. فكان لهذا البيت مشاركة تراوحت بين الرياسة السلطانية والرياسة العلمية على حد تعبير ابن حيان[١٣] لأنه لا يعدم ملك العصبية (أو الشوكة) التي تجري بها هذه الرياسة مادام:

" تفاوت البيوت في أهل الشرف بتفاوت العصبية، لأنه سرها "[١٤]

فهذه المتواليات وما يشبهها في النص تثبت عدة أشكال للنسب:

النسب القبيلي:

انتساب بيت بني خلدون إلى رجل واحد: وائل بن حجر، ومن هذا النسب نشتق نسبة الجماعة إلى مبدئها الأول كالنسبة الحاصلة بين المعلوم والعلة، ونسبة الجماعة إلى بعضها البعض وهي التي يعبر عنها ابن خلدون بقوله:

(١٠) ص ٤٩ الرحلة.
(١١) الصفحة نفسها والمرجع نفسه.
(١٢) والقيل بلغة أهل اليمن الملك من ملوك حمير يقول ما شاء، وهو دون الملك الأعلى الأعظم، يكون ملكا على قومه ومخلافه ومحجره، وقيل سمي الملك قيلا، لأنه إذا قال قولا نفذ قوله، راجع هذه المادة في " لسان العرب" لابن منظور، دار المعارف، صص ٣٧٧٩، ٣٧٨٠.
(١٣) ص ٥٣ الرحلة.
(١٤) مقدمة ابن خلدون، صص ٤٩١، ٤٩٢، مرجع مذكور.

" إن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي
يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة "[١٥]

وهي نسبة المعلولين إلى المعلولين، وهذه تسمى نسبة طبيعية[١٦]، يمكن أن ندرج فيها نسبة إضافة المعبرة عن شجرة أنساب أبائه الأقربين.

ونسبة عرضية تشتمل على النسبة المكانية التي تشير إلى موضع وبلد الولادة والنشأة، والنسبة الصناعية المتعلقة بالمشيخة على الوجه الذي سنذكرها به.

يسمح العنوان الموازي ل " المشيخة " باستخراج فئتين كبيرتين : فئة " الأشياخ " وفئة " الأصحاب " .

تشكل الفئة الأولى لزوما علميا لشخصية المؤلف ابن خلدون، وتتصل وظائفها بمهارات تعليمية وبيداغوجية مرتبطة بحقول معرفية علمية شهيرة التداول في الثقافة العربية-الإسلامية. ونسطر منها اللائحة التالية على سبيل التمثيل لا الحصر :

القراءة، الأخذ، التعلم ، الإخبار، الحفظ، الاستظهار، السماع،

الدراسة، المناولة، الكتابة، العرض، الختم، اللزوم، الإشهاد،

الأنتياب، الصحبة، الاغتباط، الإفادة، الإجازة، التبريز.

ويمكن ترتيبها تبعا لقيمتها على هذا النحو :

السماع (وتدريجه : سمعت، حدثني، أنبأني، قال ، ذكر)

القراءة	**الإجازة**	**المناولة**
الكتابة	**الإعلام**	**الوصية**
الوجادة [١٧]		

وتكون هذه العمليات التعليمية نسقا في التربية والتعليم والثقافة يكاد يكون تاما ومكتفيا بذاته. وكل واحدة منها أو في علاقة مع ما تجاورها عبارة عن سنن مسكوك يطبع الشخص المستهدف بقيمة معنية في النقل والرواية والتواصل والمعيرة والحكم سواء تعلق

(١٥) المرجع نفسه ، ص ٤٨٤ .
(١٦) تفسير كتاب إيساغوجي ص ٦٠، مرجع مذكور.
(١٧) أبو الوليد الباجي : إحكام الفصول في أحكام الأصول، حققه وقدم له ووضع فهارسه : عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأول ١٩٨٦، بيروت، لبنان، ص ٢٠ .

الأمر بسلم التدرج في المتون الذي يبدأ، غالبا، بحفظ القرآن الكريم، كما هو حال مؤلفنا، أم بسلسلة الشيوخ المشهود لهم بطول الباع والشهرة في علم من العلوم أو أكثر والتي لا يمكن، في كل الأحوال ، أن تتجاوز دائرتي العلوم النقلية والعلوم العقلية كما ذكرها ابن خلدون نفسه في مقدمته[١٨].

أما فئة الأصحاب، فوظيفتها التأثيرية والإفهامية فهي غير مباشرة ولا تستحوذ من المهارات التحصيلية السالفة إلا على نسبة ضئيلة إن لم نقل محدودة.

ويقربنا الجدول التالي أكثر من هذين الفئتين:

اسم العالم الشيخ	نوع المتن والقيمة
أبو عبد الله محمد[*] (والده)	صناعة العربية
عبد الله بن محمد بن سعيد بن برال	قراءة القرآن ـ القراءات السبع إفرادا وجمعا ـ رواية يعقوب ـ قصيدتا الشاطبي اللامية والرائية ـ كتاب التقصي لأحاديث الموطأ لابن عبد البر ـ كتاب التسهيل لابن مالك ـ مختصر ابن الحاجب في الفقه.
أبو عبد الله بن العربي الحصايري	صناعة العربية
أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي	
أبو العباس أحمد بن القصار	
أبو عبد الله محمد بن حجر	علوم اللسان ـ حفظ الأشعار ـ الحماسة للأعلام الشنتمري ـ شعر أبي تمام ـ طائفة من شعر المتنبي ـ أشعار من كتاب الأغاني.
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي	كتاب مسلم بن الحجاج ـ كتاب الصيد ـ كتاب الموطأ ـ الأمهات الخمس ـ الإجازة العامة ـ الإخبار.

(١٨) المقدمة ، ص ١٠٠٧ ، مرجع مذكور

(*) وعند ابن خلدون في النص هو : محمد أبو كبر : " ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر" ص ٦١ الرحلة.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجياني	الفقه
أبو القاسم محمد القصير	كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي ـ مختصر المدونة ـ كتاب المالكية ـ التفقه ـ سماع كتاب الموطأ ـ الكتابة ـ الإجازة

أسماء الأعلام الشيوخ المرافقين للسلطان أبي الحسن	نوع المتن والقيمة
أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي	الانتياب ـ الإفادة
أبو محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي	السماع ـ الإجازة ـ الأمهات الست ـ الموطأ ـ السيرة لابن إسحاق ـ كتاب الصلاح في الحديث ـ كتب أخرى .
أبو العباس الزواوي	قراءة القرآن ـ الجمع الكبير بين القراءات السبع ـ الإجازة العامة .
أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي	العلوم العقلية : الأصلان ـ المنطق ـ التبريز ـ سائر الفنون الحكمية والتعليمية .

اسم العالم الصاحب	نوع المتن والقيمة
أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي	الإفادة ـ عدم الأخذ
أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصباغ	المنقول والمعقول ـ الحديث
أبو عبد الله محمد بن عبد النور	الفقه على مذهب مالك
أبو عبد الله محمد بن النجار	التعاليم
أبو العباس أحمد بن شعيب	اللسان ـ الأدب ـ العلوم العقلية(الفلسفة ـ التعاليم ـ الطب)

يستدعي هذا الجدول الملحوظات التالية :

١ . يميز المعرف بنفسه بين صنفين من العلماء في مسيرة مشيخته : صنف العلماء الشيوخ

وهم أساتذته بمعنى الكلمة الذين تنطبق عليهم لفظه " شيخ "

والشيخ معجما وعرفا هو من :

" استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب(. . . .)
هو من الخمسين إلى الثمانين "[١٩]

وهؤلاء الشيوخ هم الذين تعلم على أيديهم ودرس وتفقه وحصل المتون الأساسة وما يحيط بها ، والذين قوموا عمله العلمي وثمنوه بالقيمة المشار إليها أعلاه .

وصنف الأصحاب ، الذين يأتون في المرتبة الثانية من درجة المشيخة واشتراطاتها . وقد استفاد منهم ابن خلدون جميعهم لكن بطريقة مائلة بفعل عوامل عدة من التقارب في السن . ولهذا الاعتبار ينعتهم ب " الأصحاب " ، يقول عن ابن رضوان المالقي :

" صحبته ، واغتبطت به ، وإن لم أتخذه
شيخا ، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم "[٢٠]

فالصحبة ليست هي المشيخة لأن الشيخ يشترط فيه أن يكون من المعمرين :

" قالو كلهم حدثنا الشيخ المعمر . . "[٢١]

لكي يصبح حجة في العلم الذي ينقله للغير بالطرق المقررة سلفا .

٢ . هذا الجدول ليس تاما ولا كاملا سواء ما تعلق منه بالأعلام الشيوخ أم بمعايير المهارات التعليمية وتثميناتها . لأن ابن خلدون يذكر شيوخا آخرين في سياقات أخرى كما فعل عند تعرضه للأسانيد التي أقرها في تدريسه لمادة الحديث في مصر .

٣ . يستخدم ابن خلدون نوعين من الترجمة و التعريف بشيوخه وأصحابه : تعريف أول وجيز ومختصر ، في شكل جذاذة يكتفي فيها بإيراد معلومات لها صلة بالعلوم التي اشتهر بها هذا العالم أو ذاك . وتعريف ثان موسع يدمج فيه معطيات علمية وخارج علمية تقترب من رسم صورة شخصية للعالم المترجم له .

وإذا كان التعريف الأول يسري على جل العلماء ، فإن التعريف الثاني لا يشمل إلا قلة منهم . وهؤلاء العلماء المترجم لهم هم :

(١٩) لسان العرب ص ٢٣٨٣ ، مرجع مذكور .
(٢٠) ص ٦٩ الرحلة .
(٢١) ص ٣٠٩ اللجنة

١ . أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي

٢ . أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي

٣ . أبو محمد عبد المهيمن ين عبد المهيمن الحضرمي

٤ . أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي

٥ . أبو العباس الزواوي

وقد احتكمنا في هذا الترتيب الذي أقمناه إلى حجم المعلومات الواردة كما وكيفا في التعريف وإلى التذويت الخطابي الذي يطبعها به المتلفظ في النص .

أما ترتيب ظاهر النص لهم فهو :

١ . أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي

٢ . أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي

٣ . أبو محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضري

٤ . أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي

٥ . أبو العباس الزواوي .

وهناك احتمال كبير أن ابن خلدون كان سيميل إلى الترتيب المقترح لو لم يعترض طريقه ترتيب صاحبه أبي القاسم الرحوي، شاعر تونس الشهير، في قصيدته التي مدح بها ابن رضوان . فهو في رأينا، ترتيب تم بحافز نصي فرضه السياق وليس بموجب علة نصية داخلية منطقية مطبوعة بذات المتكلم .

واللافت للعيان، على هذا المستوى لتذويت الكلام في النص، هو تفردن الشيخ الآبلي بحجم المعطيات أكثر من غيره . معطيات يتداخل فيها ما هو علمي بما هو إنساني بما هو سياسي وبصفة خاصة تلك الأحوال المأساوية التي عاشها هذا الشيخ وكادت، في أحايين كثيرة، أن تؤدي بحياته وتعصف بها من إكراه، واختفاء، ونفي، ومرض عقلي، وهجرة الخ .

ويعكس الاهتمام بالترجمة لهذا الشيخ التقدير الذي يكنه ابن خلدون له، فهو أستاذه الأثير وشيخه المبجل الذي فتح عينيه على العلوم العقلية وقريب العائلة الحميم الذي

أصبح واحدا منها :

" وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه الله صحابة، كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه، فلزمت مجلسه، وأخذت عنه ، وافتتحت العلوم العقلية بالتعاليم "(٢٢)

فعاش الآبلي في نزل وكفالة والد ابن خلدون هذا(*) .

وعلى العموم، هناك أكثر من آصرة تجمع بين الشيخ الآبلي ومريده ابن خلدون، منها :

- الأصل الأندلسي
- علامة النبوغ المبكر والذكاء المتقد
- الميل إلى تحصيل العلم وبثه بين الناس
- الانتظام في سلك الوظائف السلطانية
- الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية المتقلبة والمتغيرة دوما
- الرحلة إلى المشرق .

بل إن ابن خلدون، ومنذ وقت مبكر، سن لنفسه مسارا يشبه إلى حد بعيد مسار شيخه :

" واستدعاه السلطان أبو عنان، فارتحل إليه، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين ، المستبد على الدولة يومئذ بتونس، إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحاق "(٢٣)

فالدعوة وجوابها شيء واحد عند الشيخ والمريد . والتكافؤ هو ذاته على الرغم من

(٢٢) ص ٨٣ الرحلة .

(*) وكان قد ثبط عزمه عن السفر مع السلطان أبي الحسن ليظل معلما لابنه ، مما وسع، أيضا من احتمال نجاته من الغرق .

(٢٣) ص ٩٩ الرحلة .

فارق السن ودرجة العلم وعمق التجربة .

وتزداد هذه الصورة التماثلية ترسيخا ، إذا استحضرنا حالة اليتم التي أصبح عليها ابن خلدون بعد وفاة والديه وقضاء جل شيوخه في " الطاعون الجارف " أو الغرق أو المعاناة من جور السلطان وحاشيته . إذ اليتم يتمان : يتم الأبوين ويتم المشيخة . ولم يبق أمامه إلا أن يشق السبل بنفسه والاعتماد على كفاياته تماما كما حصل للآبلي الذي عاش في كنف جده القاضي .

٣- العناوين الفرعية بوصفها أداة ناظمة:

لا تكتفي العناوين الداخلية بلعب هذا الدور الموضوعاتي للململة واقتناص أفكار النص ومحورتها خطيا ، بل تتخطاه إلى لعب دور الناظم الإعلاني والتصريحي في هذا النص ذاته ، وتتحول ، بهذه الكيفية ، إلى عامل مساعد في عملية القراءة والتقطيع والتوزيع والتفضية . وبهذا الدور تسهم في توجيه فعل الإقراء واختياراته الممكنة كما هو حال إجرائنا هذا الذي ينصب ، بالدرجة الأولى ، على المقطع المتصل بالرحلة إلى المشرق وعنوانه : " الرحلة إلى المشرق ، وولاية القضاء بمصر " .

وللوهلة الأولى ، يفهم من هذا العنوان أن ما سيأتي من أقوال يسند إلى موضوعة القضاء المعطوفة على الرحلة بوصفها جنسا أدبيا ملائما لهذا النوع من القوللة ومشاركا للعنوان الرئيس في تكونه النوعي . فهذا العنوان الفرعي لا يفصح ظاهريا إلا عن هذه الموضوعة ووصلها بنقطة مكانية- مجالية : المشرق ، وإن كانت مشهورة بحمول أخرى راسخة التقليد كقضاء فرض الحج[٢٤] والالتقاء بالعلماء والأخذ عنهم[٢٥] والاستزادة من علمهم وجلب الكتب النادرة والنافعة في العلوم المتداولة في ذلك الوقت[٢٦] مما يحث على طرح السؤال : لماذا ربط القضاء بالرحلة إلى المشرق؟

يلتقي ابن خلدون والقلقشندي في نظرتهم للقضاء باعتباه وظيفة من الوظائف الرسمية

(٢٤) نعلم أن العلة الأولى التي تذرع بها ابن خلدون لسلطان تونس هي رغبته في قضاء الفرض . وهي أيضا التي يشير إليها في " مقدمته " : " ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء أنواره ، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره " ص ٢٨٦ ، مرجع مذكور ، وهناك سبب آخر يرجع إلى الإكراهات المتكررة من قبل السلطان والتي لم يعد يتحملها : " فخشيت أن يعود في شأني ما كان من السفرة قبلها " ، أما السبب الثالث فهو تشوفه للتفرغ للعلم وإعادة النظر في بضاعته منه وهو ما لا يتوافق والعمل السياسي : " وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم " ص ٢٨٤ الرحلة .

(٢٥) انظر مثلا : خالد بن عيسى البلوي : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق . تقديم وتحقيق الحسن السائح . نشر مشترك بين الإمارات ع . م والمملكة المغربية .

(٢٦) خلال أدائه لفرض الحج التقى ابن خلدون بالأديب أبي اسحاق الساحلي الذي حمل إليه رسائل منها رسالة أبي عبد الله بن زمرك يبث فيها شوقه إليه ويطلب منه الحصول على كتب في التفاسير والشروح . ص ٢٧٨ اللجنة .

التي تشرف عليها الدولة، فهو: " من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها "[٢٧].

وبما أن مهام السلطان تتحدد في توجيه السياسة الكبرى للدولة من جهاد، وفتوحات، وسد الثغور وحماية البيضة، فإن بعض الوظائف الأخرى، والقضاء منها، أصبحت تسند إلى أشخاص أكفاء قادرين على تحمل وزر القيام بها وتخفيف عبئها على السلطان لكي يتفرغ كلية إلى سياسته العامة مع الاحتفاظ بهذه الوظائف تحت وصايته نظرا لحساسيتها وخطورتها وتأثيرها على قيم المجتمع، فالقضاء تعريفا:

" منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة "[٢٨]

إلا أن هذا البعد الديني لا يلغي عنه طابعه الاجتماعي والسياسي، ولذلك تقررت في منصبه أحكام وشروط وتجاوز الفصل بين المتقاضين إلى استيفاء الحقوق العامة للمسلمين.

وبناء على هذا أدرجه القلقشندي في نوع " أرباب الوظائف الدينية " من مناصب حملة الأقلام التي تشكل ومناصب حملة السيوف أعلى المراتب الوظيفية في هرم الدولة[٢٩].

فمن هذه الزاوية يمكن فهم مغزى سؤالنا السابق وسياق تولية ابن خلدون لمنصب قاضي القضاة المالكية بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية[٣٠] والشروط البروتوكولية الرسمية التي جرت فيها هذه الولاية وفي بلد غير بلده الأصلي ولمرات متعددة[٣١]. وهذا لا يفسره إلا الاعتراف الرسمي بمكانة ابن خلدون في جباية الحقوق وأهليته لهذا المنصب وكفايته العلمية التي ترشحه لأن يمثل المذهب المالكي من بين المذاهب الأربعة المعترف بها في جهاز الدولة.

وكيفما كانت الظروف المتحكمة في هذا المنصب وعواملها النافية والمشككة، من ولاية وخلع وعزل وسعاية وطعن الخ. فإنه يظل منصبا ساميا ما دام ينتمي إلى صنف " من له

(٢٧) المقدمة ص ٦٢٧، مرجع مذكور.
(٢٨) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٢٩) أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٣٥. ولا يثني ابن خلدون أن يشير إلى أن أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر قد يتغير ويتبدل بحسب الظروف والأحوال. ص ٣٢٣. المقدمة. مرجع مذكور.
(٣٠) ص ٢٨٥ اللجنة
(٣١) وصلت خمس مرات كان آخرها سنة ٨٠٧هـ ص ٣٨٤ اللجنة.

مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف " وموضوعه :

" التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم، ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه "(٣٢)

وبهذا صار من :

" أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرا وأجلها رتبة "(٣٣)

وكما أشرنا فإن وظيفة قاضي قضاة المالكية هي واحدة من بين وظائف مذاهب الأئمة الأربعة : الشافعي ومالك وأبي حنيفة وابن حنبل وكلها كانت ممثلة بقاض خاص منذ أن استقر حالها على أيام الظاهر بيبرس(٣٤) .

وإذا كان كل هذا يتعلق بالجانب النظري لهذه الوظيفة ومنزلتها في التراتبية الإدارية للدولة، فإنه ينبغي علينا أن نتناول الآن بعض المظاهر العملية لهذه الوظيفة كما تجسدها ممارسة ابن خلدون لها وذلك بالتشديد على نقطتين هما : المقاصد والأحوال .

فيما يتعلق بالمقاصد فإن ابن خلدون يحصرها في الأقوال التالية :

١ . " ووفيت عهد الله في إقامة رسم الحق، وتحري المعدلة "(٣٥) .

٢ . " فجريت على السنن المعروف مني، من القيام بما يجب للوظيفة شرعا وعادة "(٣٦) .

٣ . " واستمررت على الحال التي كنت عليها من القيام بالحق والإعراض عن الأعراض، والإنصاف من المطالب "(٣٧) .

وعليه فإن مطالب القضاء تتحدد في :

(٣٢) صبح الأعشى ص ٣٥ مرجع مذكور .
(٣٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(٣٤) وسار العمل بهذا النحو كما يقول ابن خلدون " لا تساع خطة هذا المعمور، وكثرة عوامله، وما يرتفع من الخصومات في جوانبه " ص ٢٥٣ اللجنة . ويضيف ابن بطوطة : " فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبر قدرا وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم ص ٢١٦ . وأن ترتيبهم في المقامات الرسمية يكون على هذا الشكل : قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي المالكية (أو العكس) ثم قاضي الحنفية . ص ٢١٧ من : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . تقديم وتحقيق : عبد الهادي التازي، ١٩٩٧، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية .
(٣٥) ص ٢٨٥ اللجنة
(٣٦) ص ٣٤٧ اللجنة
(٣٧) ص ٣٨٣ اللجنة .

- إقامة حدود شرع الله وتقرير أحكامه
- تثبيت العدل والمساواة
- الإعراض عن الأهواء وقضاء الأغراض
- السير في إمضاء الأحكام على سنن الشريعة والعادة الجارية[٣٨] .

أما الأحوال الوقتية فيتوجب فيها العمل على :

- التصدي لكل أنواع المفاسد والاستفساد
- ضبط نظام الأوقاف
- تقييد خطة الفتيا بالمذهب
- النظر في نظام الإجارة في الزوايا

وإذا جمعنا هذه المقاصد والأحوال نلفيها عبارة عن فقرات رئيسة في مشروع إصلاحي يستهدف الجهاز المؤسساتي للقضاء ومحاولة حثيثة وجريئة لتحقيق تلك المعادلة النبيلة والمستعصية في الآن نفسه : التكافؤ بين سطوة السلطنة ونصفة القضاء .

فربط الرحلة إلى المشرق بالقضاء قد يكون سببه ، إذا ، هذه الاعتبارات المحيطة والتي لا يمكن أن تنفصل عن شروط سياق الرحلة نفسا والظرف الذي يوجد فيه ابن خلدون وأهواء السياسة على صعيد الدولة وغيرها من المعطيات التي لا يفصح عنها النص بكل وضوح ، وكيفما كان المقتضى الذي نحلل على ضوئه هذه القضية فمما لاشك فيه أن ممارسة ابن خلدون لوظيفة القضاء هو في حد ذاته ، وكما أشرنا ، إعلاء لمكانته في سلم القيم الدينية والشرعية والتقليد المذهبي الذي يمثله وأساساته الاجتماعية والسياسية ، وإن كان على تفطن كبير :

" لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد "[٣٩]

بحكم التطور الذي لحق الدولة والعصيبات . إلا أن هذا العنوان لا ينبغي أن يفهم منه ، وعلى التو ، أن رحلة ابن خلدون إلى المشرق تتلخص كلها في ممارسة القضاء ، لأن العناوين الفرعية التالية تشير إلى موضوعات أخرى تضمنتها هذه الرحلة منها موضوعة التدريس

(٣٨) وقد أكد ابن خلدون أن كتاب أبي موسى الأشعري إلى عمر ﷺ في موضوع القضاء هو " الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه " . المقدمة ص ٦٢٧ ، مرجع مذكور .

(٣٩) المقدمة ص ٣٢٣، مرجع مذكور .

وولاية الخوانق[٤٠].

وما قلناه عن وظيفة القضاء يمكن قوله عن وظيفة التدريس، فالقلقشندي يدرجها، ضمن تصنيفه السالف، في الصنف الثاني من الوظائف الدينية التي لا مجلس لها بالحضرة السلطانية. وهي عنده على نوعين: نوع عام في أشخاص ونوع مختص في شخص واحد. وقد استوفى ابن خلدون، في هذه الرحلة، النوعين معا.

فتحت النوع الأول ندخل توليه لوظيفة التدريس في مدارس شهيرة كالمدرسية القمحية[٤١]، والمدرسة الظاهرية[٤٢]، والمدرسة الصرغتمشية[٤٣] (أو الصلغتمشية) والجامع الأزهر الذي فتح به باب ولوج هذا السلك من الوظائف منذ وصوله إلى القاهرة:

" وانثال علي طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذرا، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها "[٤٤]

وباستثناء الجامع الأزهر وتمشيا مع التقليد المرسوم والمتبع، فإن ابن خلدون كان عليه، في كل تعيين، أن يحرر خطبة يلقيها أمام الحضور من الأمراء وكبار الدولة والأعيان يلم فيها، كما يقول، بذكر القوم " بما يناسبهم ويوفي حقهم " مع وصف للمقام وهي قاعدة مطردة في كل الولايات التي ارتسم فيها:

" فأنشأت خطبة أقوم بها في يوم مفتتح التدريس على عادتهم في ذلك "[٤٥]

وعند نهايتها يشيد بتأثيرها الايجابي على متلقيه ومستمعيه من الحضور:

" وانفض ذلك المجلس، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب، وأخلص النجي في ذلك الخاصة والجمهور "[٤٦]

(٤٠) " ولاية الدروس والخوانق" ص ٢٧٩ اللجنة.
(٤١) ص ٢٧٩ اللجنة.
(٤٢) ص ٢٨٦ اللجنة
(٤٣) ص ٣١٠ اللجنة
(٤٤) ص ٢٤٧ اللجنة.
(٤٥) ص ٢٤٦ اللجنة.
(٤٦) ص ٣١٠ اللجنة انظر أيضا ص ٢٨٠.

وهو تثمين انعكاسي تصدره الذات على نفسها ويتماهى فيه المعيار الأخلاقي ومعيار الأهلية (الكفاية) ومعيار إجماع الحكم (الخاصة والعامة).

وتكمن قيمة هذه الخطب في حفاظها على تقليد الكتابة الذي كان سائدا في مثل هذه الأحوال، وفي صورتها النصية التي تعكس صناعة الانشا عند ابن خلدون وتنويع أسلوب في النص وما يتقوم به من سجلات: رسائل، شعر، أقاويل مسموعة ومروية ومنقولة، حوارات، تلخيصات، تعاليق، شروح، عناوين الخ وهو ما يسم الخطاب بأسلبة مخصوصة، كما تكشف عن مقاصد الخطيب- المتحدث وإرغام كلامه لسلطة المقام ومساق التلفظ واستمالة مستمعيه بكل وسائل الاقناع الممكنة مما يبين عن بلاغة للخطاب صريحة.

ولا ينفصل هذا المكون الخطابي في هذه الخطب الافتتاحية (الكفاية اللسانية والبلاغية- الحجاجية وتلبسها للدلالة) عن مكونها البيداغوجي الذي يظهر جليا في خطبة المدرسة الصرغتمشية لتدريس الحديث واقتراح كتاب الموطأ للإمام مالك مادة لمقرر الدرس. وقد دفع ابن خلدون بعناصر منهاجية تشفع له بهذا الاختيار على هذا النحو:

١. تسويغ المقترح:

" إنه من أصول السنن، وأمهات الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه "(٤٧)

٢. التعريف بالمؤلف

٣. منزلة كتاب " الموطأ " من كتب الحديث

٤. طرق وروايات " الموطأ " واعتماد رواية وسند حي بن يحي.

فابن خلدون بهذا الاقتراح المنهاجي ، بالرغم من بساطته وتواضعه، يعرض نموذجا لنسق ديداكتيكي لكيفية تدريس علوم الحديث يعبر فيه عن إدراك وفهم معينين لهذه العلوم والسبيل الأصوب والمجرى الأوفى والمسلك الأجدى مما ينبغي قطعه لتوصيلها إلى المتلقين والقناة المثلى التي من الضروري اجتيازها لإعادة إنتاج هذه المعرفة التي تلقاها عن شيوخه

(٤٧) ص ٢٩٧ اللجنة. وللاطلاع أكثر على مادة علوم الحديث يمكن الرجوع إلى المقدمة ص ١٠٣٣، مرجع مذكور.

الأسبقين المسجلين في الجدول وغير المسجلين.

وهو الآن في وضع ملائم ومريح يسمح له أن يقوم بدور الناقل لهذه المعرفة ومحتوياتها بطرائق التعلم المسطرة ليضمن اتصال سلسلة الرواية والسند والإحالة وعدم انقطاع حبل سرتها الذي يرحل إلى جيل ومن عصر إلى عصر إذ بانقطاعه ينقطع رحم هذه المعرفة وهو ما لا يطمئن إليه ابن خلدون، ولهذا كانت وظيفة التدريس تتجاوب مع هواه الذاتي[٤٨]. وهي وظيفة لا تقل مرتبة وأهمية عن وظيفة القضاء لأنها:

" على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث
والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لا يولي
السلطان فيها إلا فيما يعظم خطره ويرتفع شأنه "[٤٩]

وهو المعنى نفسه الذي يقلبه ابن خلدون في سياقات مختلفة من النص والخطب:

" والسلطان يولي في الوظيفة من يراه
أهلا حتى دعاه إلى ذلك داع(...) وكان
يرانـــي الأولى بذلك "[٥٠]

فوظيفة التدريس (أو التداريس كما يرسمها القلقشندي)، وسميها التأليف ملازمة لابن خلدون ملازمة الظل لشخصه ولا تنفك عنه في الحال والترحال ويرجع إليها في أحلك الظروف وأصغاها، وفي وقت الشدة والفرج حتى ولو أصبح المعلم " منقطع الجذم" والعلم صناعة بخلاف ما كان عليه الأمر سابقا:

" نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما

(٤٨) هناك أكثر من تعبير عن هذا الهوى الشخصي يتم في النص بمعنى واحد وألفاظ مختلفة: رتعت عاكفا على تدريس علم، أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف، وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريسا وتأليفا، وشغلت بما أنا عليه من التدريس والتأليف، ومضيت على حالي من الانقباض، و التدريس، والتأليف، مكبا على الاشتغال بالعلم، تأليفا وتدريسا، بما كنت مشتغلا به من تدريس العلم وتأليفه الخ يمكن مثلا النظر في صص: ٢٦٠، ٢٨٥، ٢٩٣ اللجنة.
كما يمكن أن نتأمل فكرة عبد الله العروي التي يشبه فيها المؤرخ بالقاضي من جهة الاستماع للأقوال والنظر فيها واللجوء إلى القسم وتسلم العقود والتثبت من صحتها الخ مع العلم أن ابن خلدون هو مؤرخ قبل كل شيء، راجع:
عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب، الجزء الأول، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة ١٩٩٧، ص ١٢٧.

(٤٩) صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٠، مرجع مذكور

(٥٠) ص ٣٤٧ اللجنة. أو مثل قوله: " وحضر لي يوم جلوسي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنويها بذكري، وعناية من السلطان ومنهم بجانبي" ص ٢٨٠ اللجنة.

جهلـــه مـــن الـــدين علـــى جهـــة الـــبلاغ "[٥١]

أي

" على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي "[٥٢]

تماما كما مر بنا في شأن القضاء .

أما النوع الثاني من تصنيف القلقشندي فندرج تحته تولية ابـن خلـدون لخانقـاه بيـبرس التي يبين انعكاسها على ضرورات معاشه بقوله :

" وكـــان رزق النظـــر فيهـــا والمـــشيخة واســـعا لمـــن يتـــولاه(. . .) فـــولاني الـــسلطان مكانـــه (أي مكـــان ناظرهـــا شـــرف الـــدين عثمـــان الأشـــقر) توســـعة علـــي ، وإحـــسانا إلـــي ، وأمـــت علـــى ذلـــك إلى أن وقعـــت فتنـــة الناصـــري "[٥٣]

فمعنى قول القلقشندي في تولية المدارس مضمر هنـا ، والخانقـاه مـن المؤسـسات الـتي اعتنت الدولة التركية بمصر والشام بتشييدها :

" لإقامـة رسـوم الفقـراء في التخلـق بـآداب ا لـصوفية الـسنية في مطارحـة الأذكـار ونوافـل الـصلوات "[٥٤]

وهي المحتويات التعريفية التي سبق لابن بطوطة أن توسع فيها في رحلته وأطر بهـا حـد الخوانق قائلا :

" وأمـا الزوايـا فكـثيرة وهـم يـسمونها الخوانـق ، واحـدتها خانقـاه والأمـراء في مـصريتنا فـسون في بنـاء الزوايـا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعـاجم ،

(٥١) المقدمة ص ٣٢٢ ، مرجع مذكور .
(٥٢) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(٥٣) ص ٣١٣ اللجنة .
(٥٤) ص ٢٧٩ اللجنة . وقد أشار إلى هذا الاعتناء وانتشار عدد المدارس ابن بطوطة بقوله : " وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها " ص ٢٠٣ رحلة ابن بطوطة ، مرجع مذكور

وهـــم أهـــل أدب ومعرفـــة بطريقـــة التـــصوف، ولكـــل
زاويـــة شـــيخ وحـــارس، وترتيـــب أمـــورهم عجيـــب "[٥٥]

ثم يذكر بعض عوائدهم في الطعام والصلاة وما إليهما بخلاف ابن خلدون الـذي يـشح نصه عن تقديم أي معلومات ومعطيات إضافية عن هذه المؤسسات سواء كانـت خوانـق أم مدارس، بل إن هذا " الترتيب العجيب" الذي يشير إليه ابن بطوطة لا نجد له صـدى عنـد ابن خلدون وإن كان مؤهلا أكثر من غيره لذلك بحكم عملـه وتجربتـه داخلـها بـالرغم مـن تشديده على الجانب المادي ـ الريعـي لهـذه المؤسـسات المتمثـل في وقـف الأراضـي المغلـة للإنفاق عليها والبر بأهلها والمنتسبين إليها:

" فكثـــــرت لـــــذلك المـــــدارس والخوانـــــق
بمدينـــــة القـــــاهرة، وأصـــــبحت معاشـــــا
للفقـــــراء مـــــن الفقهـــــاء والـــــصوفية "[٥٦]

وتبقى الخوانق، على العموم، مؤسسات ذات طابع روحي ـ اجتمـاعي وبهـذا الوضـع تنسجم والنسق الوظيفي الذي أقره القلقشندي، هـذا علـى مـستوى التـصنيف، أمـا علـى مستوى الجهات **Modalités** والعوامل فإن كل وظيفة، كتلك التي باشرها ابـن خلـدون، تعتبر لقاء بين ذات وموضوع موسط بكفاية وأداة وخبرة، وهو ما يسهل استنباطه من أقوال الاستشهادات السالفة، وبهذه الكيفيـة فإنهـا تنتـسب إلى المعرفـة – الفعـل[*] **SAVOIR-FAIRE**[٥٧].

٤- التفسير بالإطار:

إذا تصفحنا العناوين الداخلية لهذا المقطع الرحلي نلحـظ أنهـا قائمـة علـى توصـيفات اسمية(وكذلك العناوين الفرعية الأخرى) تدل إمـا علـى أفعـال في المكـان (الـسفر لقـضاء الحج، سفر السلطان إلى الشام، الرجوع(. . .) إلى مصر. . .) أو على حمل وظيفـة، وهـو ما وقفنا عنده بعد حين،(ولاية الدروس والخوانق، ولاية القضاء. . .) مـع تـواتر عـددي لهذه الوظيفة الأخيرة (أولى، ثانية، ثالثة، رابعةو خامسة) وتواليها الكمي، أو على حدث متصل (بعامل القاء الأمير تمر. . .) أو بحدث بعينه (فتنة الناصري. . . .).

(٥٥) ص ٢٠٤ رحلة ابن بطوطة، مرجع مذكور
(٥٦) ص ٢٧٩ اللجنة.
(57) PHLIPPE HAMON: TEXTE ET IDEOLOGIE , EDS P.U.F , 1984, P : 106

ويشتغل النص وفق آليات مخصوصة لإظهار موضوعات هذه العناوين والتأليف بينها في صورة متجانسة تركيبيا، فإلى جانب الترتيب في الزمان والمكان والتخطيب هناك الروابط المنطقية التي تشد الأحداث والظواهر والعناصر إلى بعضها البعض بوجوه منها العلة التفسيرية.

فالعزل من خانقاه بيبرس يشار إليه في آخر عنوان " ولاية الدروس والخوانق " :

" . . حتى ولاني خانقاه بيبرس، ثم عزلني
عنها بعد سنة أو أزيد، بسبب أنا أذكره الآن "(٥٨)

ولكن هذا الضمير الذي يتكلم سردا عن هذا الحدث لا يعمل بهذا الالتزام الذي أخذه على عاتقه وهو تفسير سبب العزل من الخانقاه في الحال الحاضر(الآن) أي في سياق التلفظ وإجراء الملفوظ، ولكننا نراه يخرج هذه العلة الحدثية عن سياقها لتصبح خارج ـ تلفظية وإن كان الفعل انجازيا، إذ في العنوان الفرعي الموالي يكتفي بمنحنا ـ نحن القراء ـ تعريفا بمؤسسة الخانقاه وظروف تعيينه فيه ثم يعيد الكرة وكأنه يذكرنا بما التزم به، لكن هذه المدة يعين حدثا مخصوصا لهذا العزل : فتنة الناصري :

" وأقمت على ذلك (أي في ولاية الخانقاه) إلى
أن وقعت فتنة الناصري "(٥٩)

فنفهم بأن العزل مرتبط بحدث أعم هو فتنة الناصري، وأنه لمعرفة الأول وجب علينا معرفة الثاني.

لكنا عند سياق عرض وقائع هذا الحدث والتفصيل في أجزائها يتبين لنا بأنه لا يشكل سببا مباشرا لفعل العزل وإنما هو عبارة عن إطار خطابي وقع فيه تمرير مساق السبب الرئيس للعزل المتعلق بحدث آخر يتمثل في مشاركة ضمير المتكلم المفرد بصيغة الجمع في فتوى جاهزة مسبقا تتهم السلطان بالاستعانة على قتل المسلمين بالكفار مما يجعله عرضة للعزل من السلطة هو الآخر. فهذا الظرف السياقي هو الذي يتم فيه فرز المطلوب الشرعي لهذا الفعل وليس الحدث ـ الإطار :

" فولى فيها غيري وعزلني عنها "(٦٠)

(٥٨) ص ٣١١ اللجنة.
(٥٩) ص ٣١٣ اللجنة.
(٦٠) ص ٣٣١ اللجنة

فينيغى، إذن، الانتقال عبر أكثر من سجل ومقام للوصول إلى تحصيل العلة المنطقية المناسبة لهذا الحدث القضوي أو ذاك.

وإذا حاولنا ترتيب قضية حدثنا منطقيا فإنه سيكون على هذا النحو:

فتنة الناصري ـ الفتوى ـ العزل.

وفيها قراءتان:

القرءان الأولى تتعلق بفاعل الفعل الإنجازي (السلطان).

والقراءة الثانية تتصل بالذي يقوم عليه هذا الفعل الإنجازي (ابن خلدون)(*)

مع الإشارة إلى أن حدث الفعل وإن كان يؤدى بضمير المتكلم فهو يتصل، ملفوظا وتلفظيا، بالفاعل وليس بالمفعول وإن كان ظاهر الخطاب يشي بأن فعل العزل فعل ذاتي وحدث الفتنة فعل موضوعي مما يمكن شرحه بحمل ما هو ذاتي على ما هو موضوعي. إلا أن الشرح الأقرب إلى عين الصواب هو استدراج ملفوظ منقول إلى ملفوظ شخصي في تأويل الحدث.

ويمكن للتحليل أن يفتح طريقا أخرى ويتساءل: هل الفتنة أقل قيمة من العزل على مستوى برهنة الخطاب؟

ثم كيف نسوي بين القراءتين السابقتين في الاستدلال على الوقائع؟ وهل معادلة الإمكان والاستحالة لها دخل في هذا الباب؟

ومن جهة أخرى، إن هذا التفسير بالإطار على صعيد النص يعد أطول عنوان على الإطلاق في جسم العناوين المطروحة بل أكبر وأطول من العنوان الرئيس نفسه. وتتألف صيغته من مسند إليه ومسند وأطروحة:

المسند إليه: فتنة الناصري، وكل فتنة في معناها التمثيلي ـ التواضعي مناقضة للنظام و" أشد من القتل".

والمسند: سياق خبر الفتنة: الحدوث، الكيفية، العوامل

(*) طبعا كل قراءة من هذين القراءتين تتضمن عدة مضمرات منها: ارتكاب كل فعل وبحكم طبيعته يؤدي إلى جزاء معين، وأن استطاعة السلطان ليست هي استطاعة الرعية، وأن وجود آمرو مأمور يعكس تراتبية اجتماعية من نتائجها المباشرة خضوع الثاني للأول لأنه أسفل والآخر أعلى الخ.

والأطروحة: التحول الذي يطرأ على الدول ويعتري أحوالها: من الضخامة والاستيلاء إلى الضعف والأنحلال.

فعنونة الإطار بهذه الصيغة تحيلنا إلى عناوين مشابهة لها في كتاب " العبر " و" قدمته" مما يجعل مكانها الطبيعي هناك أنسب لها من مكانها هنا في " التعريف" بالرغم من العلاقة النصية الثابتة بين هذه الأعمال المشكلة لعمل واحد بإيقات تبدو مختلفة.

ولهذه الضروب الثلاثة لصيغة العنوان فائدة أخرى نجنيها منها في تحليل عناوين فرعية نقلية كالعناوين العاملية في لائحتنا ومنها لقاء تيمور لنك.

يمكن الإلماع[٦١]، منذ البداية، إلى أن النص التحققي لهذا العنوان قد حاز كل مقومات وبصمات الإوالية النمطية التي بوساطتها يصهر النص عناصره ويعرض منتوجه على القراء. فضمير المتكلم في الحكي لا يتوانى عن العمل، وبكل جد وكد، لترسيخ صورة شخصية إيجابية لموضوع حديثه الممثل لكل سمات الإمارة والسلطة والملك. ولإبراز هذه السمات وحملها على صاحبها تيمورلنك وتجذيرها في الخطاب يتم الاستناد إلى كل أنواع الحيل الإحالية الوسيطة من تجربة ذاتية واحتكاك مباشر ومعاينة ومخالطة[٦٢]، وأدل نصية أسطورية (أقوال المنجمين والمتصوفة) وتاريخية (الأطروحة)، وكلامية[٦٣] ومناظرية[٦٤] وتواصلية [٦٥] وكتابية ـ إخبارية [٦٦] وفقهية ـ عرفية [٦٧] وحقوقية[٦٨] وخدماتية[٦٩].

(٦١) هذه المفردة عزيزة على ابن خلدون ويكثر من استعمالها.

(٦٢) " وأقمت عندهخمسا وثلاثين يوما، أبا كره وأراوحه، ثم صرفني، وودعني على أحسن حال" ص ٣٨١لا اللجنة.

(٦٣) يتكرر تعبير تزوير الكلام " فزورت في نفسي كلاما أخاطبه به، وأتلطفه بتعظيم أحواله وملكه" ص ٣٧١ اللجنة. وللكلام المزور عدة معان منها: المموه بالكذب، المحسن، المثقف قبل أن يتكلم به، المهيأ والمهذب ومنه قول عمر ﷺ: كنت زورت في نفسي كلاما يوم سقيفة بني سعيدة أي هيأت وأصلحت. فهو إصلاح الكلام وتهيئته. ولعله المقصود هنا. را. لسان العرب: ص ص ١٨٨٨، ١٨٨٩، مرجع مذكور

(٦٤) يثبت النص في أذهاننا فكرة قدرة تيمولنك على خوض أسلوب المناظرة والحجاج ويتضح ذلك في سياقات منها مناقشته لأطروحة ابن خلدون عن الملك والعصبية وتفضيل الأتراك على الأقوام الأخرى وبصفة أخص مسألة نسب بختنصر ص ٣٧٣ اللجنة.

(٦٥) ونقصد بها الهدية وهي عبارة عن: مصحف رائع وحسن وسجادة أنيقة ونسخة من قصيدة البردة للبوصيري وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة بالإضافة إلى البغلة وإن كان قد توصل بثمنها منقوصا. ص ص ٣٧٧، ٣٨٠ اللجنة. فالمهاداة والاتحاف أشكال تواصلية ذات بعد " دبلوماسي. انظر ص ٣٣٥ اللجنة.

(٦٦) ندرج فيها تأليف كتاب عن وصف المغرب بطلب من تيمور لنك وإخبار سلطان المغرب كتابة بهذا اللقاء وحيثياته. ص ٣٨٠ اللجنة.

(٦٧) وتتمثل في اجتماع الفقهاء والقضاة وطلبهم الأمان مقابل رفع الحصار عن المدينة وفتحها. ص ٣٦٧ اللجنة

(٦٨) وخير دليل على ذلك مجلس النصفة الذي انعقد بحضرة تيمور لذك للنظر في موضوع أحد مطالبي الخلافة من أعقاب الخلفاء بمصر وذرية الحاكم العباسي ومحاججته في مطلوبه، ولعل هذا المجلس كناية تعريضية بسلطان مصر الذي، كما نعلم، ذهب ابن خلدون في ركابه فأصبح من المخلفين. ص ٣٧٤ اللجنة.

وكلها وسائط تسهم في تبنين النص وتشكلاته الخطابية مع دعمها بصور جهية نستخلص من ورائها التلازم بين عامل موضوع الحديث وكفاياته العقلية والمعرفية والاستطاعة الناقصة (عطل فيزيقي) التي لا تؤثر في شيء على وضعية هذا العامل ودائرة أفعاله وهو ما وجب الإعلام به على وجه الإبلاغ الخبري على هذه الصورة:

" هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج ،
بما يعلم وبما لا يعلم ، عمره بين الستين والسبعين ،
وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة
أيام صباه ، على ما أخبرني ، فيجرها في قريب المشي ،
ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة ،
وهو مصنوع له "[٧٠]

وتزداد هذه الصورة كثافة وزخما أكثر إذا استحضرنا كل مكونات الخطة الاستراتيجية في الحرب والنزال وعدد الجند والقوم وعدة السلاح وطريقة تملك البلدان والتحكم في الأبدان[٧١].

ومن أجل استكمال موجبات التمفصل في النص ككل بين المتكلم (ابن خلدون) وممثلي مؤسسة السلطة يمكن لهذه الخطاطة أن تفي بالغرض المطلوب:

الملك الظاهر : علاقة كفالة
الملك فرج : مشاركة متخلف
الملك تيمورلنك : علاقة خدمة
سلطان المغرب : علاقة تقرير خبري

٥- المحكيات الرحلية العارية من العنونة:

إن المحكي الذي أتينا على تحليل بعض عناصره يدخل ، كما رأينا ، في سياق سفر ابن خلدون رفقة سلطان مصر لمدافعة التتر عن الشام . وما كان من تخلفه هناك ولقائه مع

(٦٩) هذا التصور للخدمة واضح في هذا الملفوظ: " فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم، وإلا فلا بغية لي فيه " صص ٣٧٨، ٣٧٩ اللجنة

(٧٠) ص ص ٣٨٢، ٣٨٣ اللجنة .

(٧١) بالاضافة إلى كيفية فتح دمشق بعد حلب، هناك في الكتاب المرسل لسلطان المغرب كل العناصر المتعلقة بالسلطان تيمور لنك وخطته في الاستيلاء على البلدان وعدته وعدده . ص ٣٨٠ وما بعدها، اللجنة .

تيمورلنك بعد عودة السلطان إلى بلده لأسباب سياسية. ويشبه هذا المحكي الرحلي الدمشقي تلك السفريات التي كان يصاحب فيها ابن خلدون السلاطين والأمراء وهو في موطنه الأصلي، ومنها آخر سفر له مع سلطان تونس قبل الرحيل إلى المشرق، وهي السفريات التي كان، غالبا، ما يستكنف منها:

فخشيت أن يعود في شأني ما كان
من السفرة قبلها" (٧٢)

وهي الوضعية نفسها التي تتكرر مع سلطان مصر:

" وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان،
فتجافيت عن ذلك، ثم أظهر العزم علي بلين
القول، وجزيل الانعام فأصخيت، وسافرت معهم" (٧٣)

وما يهمنا في هذا المحكي هو طابعه الرحلي الذي لا يتجاوز بالكاد ما وقفنا عنده بعد قليل والذي يمكن أن نضيف إليه ذلك الوصف الوجيز للحالة التي أصبحت عليها حلب ودمشق:

" واقتحم المغل المدينة من كل ناحية،
ووقع فيها من العيث، والنهب، والمصادرة،
واستباحة الحرم، ما لم يعهد الناس مثله" (٧٤)

وما استعمل في هذا الاقتحام والزحف من آلالات كالمجانيق، والنفوط، والعرادات والنقب وما شاكلها مما:

" بلغ مبالغه في الشناعة والقبح" (٧٥)

فالسارد(ابن خلدون) يعرض هذه المعلومات بوصفه شاهدا مباشرا وحيا لهذه الواقعات مستندا في ذلك إلى معرفته العيانية والميدانية ومشاركته الفعلية والملموسة في مجريات هذه الأحداث، على الأقل، من الوجهة التي يحد من تأثيرها. وعلى هذا المنحى

(٧٢) ص ٢٨٤ اللجنة
(٧٣) ص ٣٦٦ اللجنة
(٧٤) ص ٣٦٥ اللجنة
(٧٥) ص ٣٧٤ اللجنة. وص ٣٨٠: " وخر بها جميعا (أي مدن الشام) وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه"

أتى هذا المحكي متشبثا بهذه الموضوعة ولم يحد عنها. ويظل القارئ في شغف لأن يعرف أشياء أخرى عن الشام عموما وعن حلب ودمشق خصوصا من تقاليد وعادات، وأوضاع اجتماعية وثقافية، ومناظر طبيعية وعمران وقيم الخ لكن ظنه سيخيب بحكم انشداد المحكي إلى هذه الموضوعة وانعدام تجاوزه إلى غيرها. ولذلك نعتقد أن قوة الحدث ورهبته وحيثيات السفر كانت مما ساعد على هذا الاقتصاد في الوصف والتشخيص والسرد الذي ألجم منظور الراوي وحريته في التقاط تفاصيل الأشياء.

وهذه العلة هي نفسها التي تطبع المحكي الزياري لقضاء الفرض والمحكي الزياري لبيت المقدس.

فالمحكي الأول يشير إليه العنوان الفرعي " السفر لقضاء الحج " بخلاف المحكيين الآخرين العاريين من أي صيغة، ويقوم الانفصال الفضائي للملفوظه واتصاله على:

الذهاب : مرسى الطور- الينبع - مكة

الإياب : مكة - الينبع - القصير - قوص " - مصر

ويتخلل الملفوظ حدث مميز هو لقاء الراوي(ابن خلدون) بإسحاق إبراهيم الساحلي الذي يمده بأخبار عن وطنه وينهى إليه فحوى طلب كاتب السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة أبي عبد الله بن زمرك للحصول على كتب في التفاسير والشروح من مصر.

وما عدا هذا اللقاء فإن ما قلناه عن المحكي الدمشقي يصدق كلية على هذا المحكي الزياري من غياب وصف الأمكنة المقدسة وأمكنة الطريق، ومشاهدات، ولقاءات العلماء والتفاوض في الحديث معهم الخ مما اشتهرت بالتدليل عليه الرحلة الحجازية وأضحى من مقوماتها النصية. فالاقتصاد في المنظور وصفا وسردا هو المهيمن على هذا النوع من المحكيات:

" ثم خرجت عام تسعة وثمانين لقضاء الفرض، وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع، ورافقت المحمل إلى مكة، فقضيت الحج عامئذ، وعدت إلى مصر في البحر كما سافرت أولا "(٧٦)

(٧٦) ص ٣١١ اللجنة.

فالإحساس الذي ينتابنا بعد قراءة هذا الشاهد هو أن السارد متعجل من أمره وينتظر، على لهفة، الانتهاء من الإعلام عن هذا الحدث (الفرض) بأسرع وقت ممكن وبأقل تعابير ممكنة وبأكثر اقتصاد في طاقة الحكي. إذ الأساس بالنسبة إليه هو إيصاله على وجه " التبليغ الخبري" وليس على وجه فن القول الرحلي الذي اكتسب كل مقومات تعبيره.

ولا يشذ المحكي المقدسي، وهو أيضا محكي زياري، عن هذه القاعدة في اقتصاد السرد والتبليغ بالخبر. ولا نتبين هذا المحكي إلا بعد أن نتصفح العنوان الداخلي " ولاية القضاء الثانية بمصر " فنعثر عليه مستقرا في تضاعيفه ومتلبسا بلبوسه ويكاد ينصهر معه. وعندما يفصح عن ذاته في النص فإن حاله التحققي هو حال المحكي السابق في الميل إلى شحاحة اللفظ وتكثيف الخبر وبرمجته وفق أمكنة الزيارة: المسجد، بيت لحم، مدفن الخليل، غزة(*)، وقطع هذا المحكي على وجه السرعة:

وارتحلت منها، فوافيت السلطان
بظاهر مصر "(٧٧)

فالمحكيات الثلاثة المشكلة لمقطع الرحلة إلى المشرق أغلبها غفل من العنوان ومتضمن في عناوين ذات سياقات حداثية أخرى، ومتصفة بغياب واضح لمقومات الرحلة باعتبارها نوعا أدبيا قائم الذات في البناء والتركيب والدلالة،ـ ومنساقة إلى اقتصاد يختزل في التعبير وينشد إلى الخبر وهو ما يمكن تعميمه على هذا المقطع نفسه.

(*) مع إخبارنا بتعففه من الدخول إلى كنيسة القيامة بما ترمز إليه من إشارة بتكذيب القرآن
(٧٧) ص ٣٥٠ اللجنة.